عز الدين القسام سيرته ودوره السياسي في فلسطين حتى 1936

م. م. سعدي يونس زاير السوداني
وزارة التربية/ المديرية العامة للتربية في محافظة بغداد الرصافة الاولى

المقدمة

يعد عز الدين القسام احد ابرز الثوار الفلسطينين في القرن العشرين، فقد استطاع الرجل منذ ولادته في بيئة اسلامية محافظة، ومن ثم دراسته في جامع الازهر ، ان يكون لنفسه طريقا خاصاً لقيادة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، وذلك عبر تشكيل منظمات فدائية عدة لتتويج ذلك بثورة عملاقة في عام 1936 التي لازالت صداها في نفوس الثوار الفلسطينين.

من هذا المنطلق ، ازددت رغبة وحماسة لان اكتب بحثا عن عز الدين القسام ، وقد قسمت البحث الى اربعة مباحث تناول الاول منها ، مولد القسام ونشأته في سوريا ونشاطه فيها ضد القوات الفرنسية ، اما المبحث الثاني فقد سلط الضوء على نشاطه السياسي وجهاده ضد المستعمرين الفرنسيين في سوريا ، في حين ركز المبحث الثالث على القوة السياسية الفلسطينية في تلك المرحلة والاعداد للثورة ، اما المبحث الرابع والاخير ، فقد تناول اعلان الثورة واستشهاد القسام.

كان امرا طبيعيا ، ان يعتمد البحث على مصادر عربية لمؤلفين فلسطينيين قد عاصروا الثورة او قريبين منها في حين اعطت المعلومات التي اوردتها تصوراً كاملا عن شخصية عز الدين الفسام وثورته العملاقة عام 1936 ومن ثم تاثيرها الايجابي على دفع المقاومة الى الامام.

أولاً: مولده ونشأته في سوريا ونشاطه فيها:

- **مولده ونشأته:**

ولد عز الدين القسام في قرية جبلة قضاء مدينة اللاذقية السورية عام 1882، والده الشيخ عبد القادر مصطفى القسام درس علوم الشريعة واشتهر فيما بعد بالتصوف ، وأمه حليمة قصاب ويتصل نسب الاسرة بالرسول الاعظم(ص)[1]. نشأ القسام في بيت من

بيوت العلم والادب وتلقى دروسا في زاوية الامام الغزالي، وبعد أن درس العلوم الابتدائية أرسله والده الى الازهر الشريف[2] وهو في الرابعة عشرة من عمره برفقة أخيه فخر الدين ، وأمضى في الازهر سنوات أخذ فيها العلم على يد أبرز أئمته ومنهم الشيخ محمد عبده[3]. وكان ذلك في عام 1896 وقد سمحت له مدة دراسته في الازهر البالغة عشر سنوات الفرصة بالاخذ من الثقافة المعاصرة له وعمقت لديه التوجه الاسلامي الثوري [4]. فضلا عن ذلك، تركت في نفسه آثاراً بعيدة لان مصر كانت في مرحلة غليان وطني، ولاسيما بعد الاحتلال البريطاني وهزيمة ثورة احمدعرابي[5]. وعرف الشيخ القسام بقدرته الفائقة على الخطابة ولباقته البارعة في إدارة دفة الحديث الى جانب قوة شخصيته ورقة سلوكه وحديثه، عاد عز الدين القسام الى سوريا عام 1906 ، بعد أن نال شهادة الأهلية، ثم ارتحل الى استنبول للاطلاع على طرق التدريس في جامعاتها وأمور أخرى[6].

بعد عودته الى سوريا ، رفع القسام راية مقاومة فرنسا في الساحل الشمالي لسوريا وكان من طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح في ثورة جبال صهيون (1919– 1920) مع عمر البيطار ، وترك قريته على الساحل، وانتقل مع أسرته الى قرية أكفة الجبلية ذات الموقع الحصين في سبيل الثورة، وكانت هذه الثورة مدرسة عملية صقلت الشيخ القسام وعلمته كثيراً من الدروس، وقد حكم عليه الفرنسيون بالاعدام لما عرفوا من قوة نفوذه واعماله في مقاومتهم[7] وفي إطار هذه الثورة السورية الاولى ضد الاستعمار الفرنسي كانت التجربة الاولى في العمل العسكري للشيخ القسام، ففي هذه المواجهة مع الغرب كانت الصورة الجديدة، فمن مشاهدة ومعايشة الاستعمار البريطاني في مصر الى محاولة إرسال مجاهدين لمقاومة الاستعمار الايطالي في طرابلس الغرب الى تجربة الصدام العسكري المباشر مع المستعمرين ورفع السلاح في وجه جنودهم وعساكرهم[8].

ثانياً : نشاطه السياسي وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا:

خلال سنوات الحرب العالمية الاولى(1914– 1918) وثق القسام صلاته بمشايخ الجبل وأغلب الوطنيين في الساحل السوري وفي الداخل[9]، وبحسب صحيفة " الجامعة الاسلامية" في عددها الصادر في 16 تشرين الثاني 1935، فقد باع الشيخ القسام بيته، قبل سقوط الساحل السوري بيد القوات الفرنسية، وهو كل ما يملك وانتقل الى قرية أكفة وفيها أخذ يروج ويحث الناس تمهيداً لاعلان الثورة، مستفيداً من الموقع الحصين للقرية

وطابعها الفلاحي، ثم انضم الى جماعة عمر البيطار في قرية شير القاق من جبال صهيون وانتظم في عداد رجالها وكان معه طائفة من اتباعه[10].

بقي الشيخ القسام مجاهداً ضد الفرنسيين في سوريا مع من تبقى من أتباعه مدة لا تقل عن سنة(1919- 1920) مستفيداً من التجارب التي خاضتها الثورة، ففيها تمرس على حرب العصابات وعرف كيف يمكن للفلاحين المجاهدين أن يواجهوا جيوشاً مدربة وتعلم من خلال تجربة الجماعات الاخرى بفشل تحالفاتها الاخرى لأن أرباب السياسة وطلاب الزعامة أبعد ما يكونوا عن الولاء للثورة ودعمها حتى النهاية[11].

1- القسام في فلسطين:

هاجر الشيخ عز الدين القسام الى حيفا عام 1921 بعد انهيار الثورة السورية وعلى الرغم من أن بعض المصادر تذكر عام 1920 أو 1922 على أنها السنة التي دخل فيها القسام فلسطين [12]، لم يجد القسام بفضل ما يتمتع به من ثقافة دينية واسعه وبراعة في الخطابة صعوبة في الانضمام الى جهاز التعليم في المدرسة الاسلامية بحيفا، ثم أنضم بعد ذلك الى جمعية الشبان المسلمين التي تولى في عام 1926 رئاستها ووقف القسام بوصفه مسلماً تقياً ورجلاً وطنياً ضد الصهيونية والحكم البريطاني[13].

بعد دخول الشيخ عز الدين القسام في فلسطين وفي ظل الظروف المهيمنة على فلسطين عمل على بناء حركته الجهادية مستنداً لضرورة التهيئة والاعداد النفسي للثورة ومعتمداً على عناصر مخلصة من الفلاحين والعمال القاطنين مدينة حيفا ومن بقية عناصر وفئات الشعب المؤمنين بضرورة العمل الجدي والمخلص.

وفي عام1929 أخذ يتجول في قرى شمالي فلسطين بوصفه موظفاً في المحكمة الشرعية بحيفا واستطاع بفضل اتصالاته بالفلاحين في القرى وبالمصلين في مسجد "الاستقلال" أن يجند بعض العناصر الثورية التي نظمها في خلايا سرية لا يتجاوز عدد أفرادها في الخلية الواحدة خمسة أفراد ثم أخذ ينشر بينهم الدعوة الى الثورة ضد العبودية وضد المستعمرين الكفار يهوداً كانوا أم بريطانيين. وفي عام 1932 انضم الى فرع حزب الاستقلال في حيفا وبعد حوادث عام 1933 بدأ يجمع التبرعات لشراء كميات صغيرة من الاسلحة استعداداً للقيام بثورة ضد الحكومة التي عدها الحامية الحقيقية للصهيونية في فلسطين، وقد حافظ القسام في اتصالاته على السرية التامة من اجل تبلور جميع العناصر الاولية لثورته[14].

2- الاجواء السياسية في فلسطين إبّان دخول القسام:

وقد بدأ التحول في اتجاهات الحركة الوطنية العربية في فلسطين بعد عام 1930، ويتلخص هذا التحول في أن الحركة الوطنية في فلسطين أخذت تزداد عداء لسلطات الاحتلال البريطاني، بسبب سياسة بريطانيا الاستعمارية الصهيونية تجاه الشعب الفلسطيني [15]. وفي ذلك الحين حدثت تغيرات هامة في أساليب الحركة الوطنية الفلسطينية، فمع تدفق أعداد المهاجرين الصهاينة الى فلسطين، في تلك السنوات، وزيادة امتلاك الصهيونية للاراضي في فلسطين، ومع ازدياد نضج عرب فلسطين سياسياً وادراكهم حقيقة الاستعمار ومناوراته واساليبه وحقيقة ارتباط الصهيونية به ارتباطاً عضوياً . انبثقت دعوة بين عرب فلسطين الى إتباع نوع آخر من أنواع النضال غير سياسة الاحتجاج والتظاهر والتمرد السلبي والوسائل السلمية. وكانت حركة عز الدين القسام الانموذج الاول لهذا النوع الجديد من النضال إذ دعت الى الكفاح المسلح طريقاً لمكافحة الاستعمار والصهيونية[16].

انعكست التطورات الداخلية في فلسطين على الشعب العربي، فقد دعت عرب فلسطين للاجتماعات الشعبية العربية الى عدم التعاون مع سلطات الانتداب البريطاني ومقاطعة لجانها ، بل تحدي قوانينها ، وبهذا الشأن، اصدرت اللجنة التنفيذية العربية بياناً في مايس 1933 ، طلبت فيه من عرب فلسطين أن يوجهوا كفاحهم ضد البريطانيين اولا على اساس انهم أصل الداء، ودعت الى عقد مؤتمر عام يعقد في يافا في 21 مايس 1933 والثابت بالفعل ، عقد في موعده ، وقرر عدم التعاون مع حكومة الانتداب، ومقاطعة البضائع البريطانية والصهيونية، وفي 8 تشرين الاول 1933 قررت اللجنة التنفيذية الدعوة الى الاضراب العام والقيام بمظاهرة في القدس تخرج بعد صلاة الجمعة في 23 تشرين الاول ثم الاضراب والتظاهر دورياً في جميع المدن الفلسطينية الكبرى ، وأن يستمر هذا الاسلوب حتى تستجيب بريطانيا الى مطالب العرب بوقف الهجرة اليهودية، ومنع انتقال ملكية الاراضي الى اليهود. وفي الموعد المحدد تحركت من المسجد الاقصى المظاهرة وكان على رأسها موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية ورفاقه اعضاء اللجنة وغيرهم من اعيان البلاد ووجهائها، ولم يعبأ احد من المتظاهرين بالامر الذي اصدرته قوات الاحتلال بمنع المظاهرات ووقعت اشتباكات مع رجال الشرطة اسفرت عن جرح 35 متظاهراً وخمسة من رجال الشرطة[17].

ساد التذمر اوساط الكثيرين من أبناء الشعب نتيجة استمرار السلطات البريطانية في سياسة التهويد، ففي ايار 1931 وردت تقارير للحكومة البريطانية تفيد أن تنظيماً ثورياً سرياً عمل بنشاط في البلاد العربية والاسلامية، للعمل على تحرير بلاد العرب والمسلمين وفي مقدمتها فلسطين من الاستعمار ، والحكم الاجنبي والاطماع الصهيونية، وذكرت التقارير نفسها، أن الزعيم العربي الدرزي شكيب أرسلان[18] في لبنان ومولانا شوكت علي[19] الزعيم الهندي المسلم ،عملا مع الحاج امين الحسيني[20] المفتي العام رئيس المجلس الاسلامي الاعلى، للتخطيط لايجاد وتجنيد وتمويل تنظيمات مسلمة تعمل على تحرير سوريا وفلسطين في وقت واحد ويكون مراكز هذه التنظيمات المسلحة في شرق الاردن ووادي سرحان وصحراء سيناء[21].

شكلت الاخطار التي تحدق بالشعب الفلسطيني ، ولاسيما الهجرة اليهودية غير القانونية استفزازاً له وعليه تصدت له التنظيمات الشبابية الفلسطينيةفي عام 1934 [22] عندما هاجم الشباب حاميات صهيونية لوقف تهريب اليهود الى البلاد، فأصطدمت أصطداماً مسلحاً خطيراً في آب 1934 بالحاميات الصهيونية قرب قرية ام خالد مما ادى الى تدخل السلطات واعلانها على اتخاذ الاجراءات الكفيلة بحراسة الحدود. فهذا الامر من صلاحياتها لا من حق المنظمات او الهيئات المدنية[23]. وعلى الرغم من التناقض الذي قد توحي به الاحداث لم يكن غريباً او من قبيل المصادفة ان تجري مباحثات بين ممثلي القيادة القومية العربية التقليدية وممثلي القيادة الصهيونية في فلسطين من اجل ايجاد حل للقضية الفلسطينية[24].

تبلور التمايز في الحركة القومية العربية الفلسطينية بقيام الاحزاب السياسية المختلفة، ولكن التمايز الاساسي لم يطفُ على السطح، بل ظهر في حركة الشيخ القسام التي مثلت تحولاً جذرياً في الحركة القومية العربية الفلسطينية وأسلوبها ومثلت الانعطاف الجذري في وجهة الحركة القومية العربية الفلسطينية من حيث وجهتها بل من حيث مضمونها الاستراتيجي واسلوبهاوبذلك فان حركة القسام قد طورت اسلوب الكفاح ونقلته من المظاهرات الى النضال المسلح ضد الاحتلال لاالبريطاني [25].

ثالثاً : التنظيمات السياسية والدينية في تلك المرحلة:

دخلت مقاومة عرب فلسطين للصهيونية والانتداب البريطاني مرحلة من مراحلها الحاسمة بعد عام 1930 وظهور تحيز السلطات البريطانية المنتدبة واكتفائها بايفاد لجان

التحقيق دون الالتفات جدياً الى المطالب الوطنية المشروعة، وانتقلت حركة المقاومة الى طور تنظيمي جديد. وعلى هذا الاساس نجد تنظيمات دينية وسياسية متعددة في فلسطين هيأت الجو النفسي تقبل فكرة الثورة على المستعمر وتنفيذها والتضحية بالارواح في سبيلها[26].ومن هذه التنظيمات:

1-حركة الشباب العربي الفلسطيني: فقد تنادى شباب فلسطين الى توحيد صفوفهم لمكافحة الخطر المحدق بالبلد، وتأليف جبهة وطنية بوجه الصهيونية والانتداب البريطاني، كما ناشدت ابناء الشعب العربي في فلسطين نبذ التفرقة والعمل يداً واحدة، فعقدت أول مؤتمر له في يافا 4 كانون الاول 1932 برئاسة راسم الخالدي وبحثوا فيه مسائل تتعلق بالتعليم القومي ومشروع صندوق الامة وغيرها.

2-مؤتمر علماء فلسطين: عقد علماء فلسطين في تشكيلهم التنظيمي اول مؤتمر لهم في 25 كانون الثاني 1935 ، واعربوا في مقرراتهم عن استنكاراتهم حوادث القمع والارهاب التي تعرض لها السوريون على ايدي السلطة الفرنسية المنتدبة كما اعلنوا تضامنهم مع الحركة الوطنية في سوريا.

3-الجمعية العربية الفلسطينية: ضمت في صفوفها الحاج امين الحسيني وعارف العارف ورفيق التميمي وعزة دروزة ومعين الماضي وغيرهم، وقد دعوا الى توحيد الصفوف في العمل المشترك واعلنوا ببيان عام الى مسلمي العالم أخطار الصهيونية.

4-اللجنة التنفيذية العربية: ترأسها موسى كاظم الحسيني، وقد اشرفت على العمل الفلسطيني القومي منذ بدء الانتداب.

5-حزب الاستقلال العربي: أول حزب فلسطيني تأسس عام 4 أب 1932 على ايدي عوني عبد الهادي وعزة دروزه ومعين الماضي واكرم زعيتر وغيرهم، وقد طالب هذا الحزب باستقلال البلاد العربية كوحدة تامة لا تقبل التجزئة وعد فلسطين جزءاً طبيعياً من سوريا كما دعا الى الغاء تصريح وعد بلفور واقامة حكم عربي برلماني في فلسطين.

6-حزب الدفاع الوطني: أسسه راغب النشاشيبي في القدس، وانضم اليه كل من يعقوب خراج، الحاج نمر السعدي، وحسن صدوقي الدجاني وغيرهم. وقد دعا هذا الحزب الى السعي في سبيل استقلال فلسطين بما يكفل السيادة العربية كما اعلنت عدم اعترافه بايه تعهدات دولية تؤدي الى سيطرة أجنبية او نفوذ خارجي.

7-الحزب العربي الفلسطيني: تأسس في24/نيسان/1935 برئاسة جمال الحسيني وأنضم اليه مزيد العنبتاوي وابراهيم درويش والشيخ محمد علي الجعيري وغيرهم. وقد طالب هذا الحزب باستقلال فلسطين ورفع الانتداب ودعا الى المحافظة على عروبة فلسطين ومقاومة تأسيس وطن قومي لليهود.

8-حزب الاصلاح: تأسس في 18 حزيران 1935 وترأسه كل من محمود أبو خضرة و د. حسين فخري الخالدي وشبلي الحجل واسحق البديري وفهمي الحسيني وغيرهم ودعا هذا الحزب الى أستقلال فلسطين وعد قضيتها جزءاً من القضية العربية الكبرى.

9-حزب الكتلة الوطنية: ترأسه عبد اللطيف صلاح في نابلس في4 تشرين الاول1935 ونادى بالمبادئ التي نادت بها الاحزاب الاخرى من حيث العمل في سبيل تحقيق استقلال فلسطين السياسي التام والمحافظة على عروبتها.

10-اللجنة العربية العليا: ترأسها الحاج امين الحسيني، وضمت كلاً من احمد حلمي عبد الباقي وحسين الخالدي ويعقوب فراج وعوني عبد الهادي وغيرهم. منذ بداية تأسيسها في 25/نيسان/ 1936 وحتى سنة 1948 وقد تولت اللجنة العربية العليا أمر حركة المقاومة العربية للصهيونية والانتداب في فلسطين وكانت الناطق الرسمي بلسان عرب فلسطين[27].

1- الاعداد للثورة:

بعد ان قدم الشيخ القسام الى حيفا ، بدأ الاعداد النفسي للثورة وقد ساعده في هذه المرحلة عدد من العاملين المؤمنين بالعروبة، ومن هؤلاء الشيخ السوري كامل قصاب وهاني ابو مصلح[28]. وكانت حيفا عندما هبط اليها الشيخ القسام سريعة النمو في عمرانها، فهي مرفأ فلسطين الاول واقرب مدنها الى لبنان ودمشق وهي بلدة متعددة الاقوام والجنسيات وهي قاعدة من قواعد التهويد مما أسبغ عليها اهمية خاصة، ووجد القسام في جمعية الشبان المسلمين التي تألفت في حيفا عام 1927 فرصة لتوسيع نطاق علاقته بالناس فكان رئيسها وحامل لوائها[29]. ولقد غدا انسجام الوجود البريطاني في السياسة الصهيونية ملموساً من جميع الطبقات، ولاسيما طبقة العمال التي يجئ المهاجرون الجدد ليخطفوا اللقمة من افواههم . وكانت حيفا مركزاً هاماً من مراكز العمال العرب

الذين كان كثير منهم من مشردي مزارعي القرى التي بيعت لليهود وأُجلوا عنها بمختلف الوسائل دون اي يلقوا من السلطات حماية مجدية[30].

وكان معقل القسام الحي القديم من حيفا حيث يقطن فقراء الفلاحين والنازحين من قراهم الى المدينة، وأبدى القسام اهتماماً حقيقياً أصيلاً بتحسين احوال معيشتهم ومكافحة الامية في صفوفهم[31]. ولهذا اضطر الشعب الفلسطيني تجاه اشتداد ضغط التآمر المسلح على قوميته وبلاده الى أن يشكل من بين أبنائه بعض الجمعيات الفدائية السرية لمقاومة مؤامرة التهويد ولحماية أمن افراده وممتلكاتهم، ومن اولى هذه الجماعات تلك التي أنشأها الشهيد الشيخ عز الدين القسام[32].

ولقد آمن القسام مستفيداً من دروس النضال التي مر بها سابقاً، بأن الثورة المسلحة هي وحدها القادرة على إنهاء الانتداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين. ومن الطبيعي ان الثورة المسلحة تحتاج الى تخطيط سياسي وعسكري والى تعبئة الجماهير نفسياً لتأييد الثورة والاشتراك فيها والى تنظيم سري ثوري لتعبئة المقاتلين عسكرياً وسياسياً. وكانت الثورة المسلحة المنظمة امراً غير مألوف بعد في الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك لان النضال لم يتعد الاضرابات والمظاهرات التي قد تقع خلالها مصادمات يقتل فيها من يقتل[33].

وقد بدأت ثورته في تأليف القلوب، ونشر المحبة، وإزالة الخصومات ونبذ الاحقاد، وكان يقوم بهذه المهمة اثناء قيامه باعمال المأذون الشرعي وفي توعية الجيل والامة الى مخاطر الهجرة وبيع الاراضي ومؤامرات حكومة الانتداب اثناء تدريسه للطلاب في المسجد وارشاد المواطنين في خطبه ودروسه وبدأت ثورته في اعداد فئة من المناضلين تكون مستعدة للقتال وذلك اثناء مباشرته منصبه رئيساً لجمعية الشبان المسلمين[34].

وكان القسام اثناء اختلاطه بالناس في مختلف أماكنهم في المساجد في القرى، في المدرسة، في الجمعية، يدرس اوضاعهم ومدى صلاحياتهم للعمل الثوري المسلح... وكان عندما يقع نظره على شخص ما يدعوه الى بيته فكان بيته مقر قيادة الثورة[35]، أي أنه كان من دعاة الاسلام وبطلاً من أبطاله، أشترك من قبل في الثورة العامة التي قامت في سوريا ضد الفرنسيين، وجاء الى حيفا متخذاً منها مقاماً ومستقراً، وكان رجلاً عالماً مؤمناً صادقاً وكانت دروسه وارشاداته تنصب على أعلام المسلمين الذين يؤمنون أن الجهاد العملي والقتال الصادق خير منطق يجابه به الاعداء الذين يهاجمون أرضنا ويدنسون

مقدساتنا وأنه لا كرامة لمسلم يرضخ للاداء أو يعاملهم ويصادقهم ويطمئن اليهم، وكان الشباب والرجال يلتفون حول الشيخ عز الدين القسام وحين يعودون الى بيوتهم يستعيدون دروسه وتعاليمه. ومن هنا بدأ التفتح الثوري والوطني في المنطقة وأكبر دليل على ذلك الاغتيالات للضباط البريطانيين ونسف القطارات ومهاجمة معسكرات المستعمرين، وغيرها ، ولاسيما في المثلث العربي حيفا- نابلس- طولكرم. وقد رأى القسام ان المقاومة تقتضي وجود كوادر مهيأة عقائدياً وسياسياً وعملياً ، لذلك إتجه الى تثقيف أنصاره ومريديه تثقيفاً اسلامياً وطنياً وكانت علمية التوعية هذه تهدف الى تزويد المقاتلين بالايمان وحثهم على التضحية والتفاني ثم عد القسام بريطانيا مصدر البلاء، وان الحركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطاني ولذلك فأن إنهاء الانتداب هو الواجب الاول على ان تبذل الجهود لمنع الحركة الصهيونية من الاستيلاء على مزيد من الاراضي. كذلك آمن القسام بأن الثورة المسلحة هي وحدها القادرة على إنهاء الانتداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين، وهذه الثورة تستلزم نشوء تنظيم سري وتربية المقاتلين واعدادهم للمعركة عسكرياً وتعبئة الجماهير نفسياً لتأييد الثورة والاشتراك فيها[36].

بدأ القسام العمل تحقيقاً لهذه الاهداف منذ عام 1922 فقد قسم ثورته على اربع مراحل هي:

أ-الاعداد النفسي ونشر روح الثورة المسلحة.

ب-انشاء حلقات سرية.

ج-تشكيل لجان قيادية لجمع التبرعات وشراء السلاح.

د-الثورة المسلحة.

وبدأ العمل أول الامر بتأسيس الحلقات السرية وقد كان انتسابه الى جمعية الشبان المسلمين عام 1926 للتستر على اعماله السرية وكان القسام يتصل بكل فئات الشعب حتى الذين لا يعرفون بالورع والتقوى فأثار حفيظة بعض رجال الدين وجرى بينه وبينهم نقاش حول الموضوع واستعمل القسام منبر "مسجد الاستقلال" في حيفا لاستثارة روح الكفاح في المصلين ولاختيار العناصر التي يتوسم فيها الخير ودعاهم الى الانضمام لحلقاته السرية، وطلب القسام من الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين في ذلك الحين ان يعينه واعظاً متنقلاً للعمل من اجل الاعدام للثورة فاعتذر الحاج امين قائلاً " **نحن نعمل لحل القضية سياسياً**" ودعاه القسام الى اعلان الثورة في الشمال أو لاعلان الثورة في

الجنوب ولكن المفتي اجاب: "**بان الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وان الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم**"[37].

كان القسام قد بنى تنظيمه السري في هذه المدة ،واشترى كميات من الاسلحة ودرب عدداً من المقاتلين وكانت اللجان الثورية الخمس التي ألفها للاشراف على هذا العمل هي:

أولاً: لجنة الدعوة: وهي مكونة من عدد من العلماء ووظيفتها اعداد الشعب للثورة مستخدمين كل الوسائل الممكنة من الاتصال اليومي بالناس الى حلقات التدريس والخطب في المساجد وغيها.

ثانياً: لجنة التدريب العسكري ووظيفتها اعداد المقاتلين.

ثالثاً: لجنة العتاد ووظيفتها شراء الاسلحة وحفظها في الاماكن الامينة.

رابعاً: لجنة مراقبة الاعداء ووظيفتها جمع المعلومات من الانجليز الصهاينة.

خامساً: لجنة الشؤون الخارجية ووظيفتها تنحصر في العلاقات الخارجية.

ومما يذكر ، ان قيادة الحركة اجتمعت بمناسبة الذكرى السنوية لاصدار "وعد بلفور" وقررت بدء الكفاح بالانتقال الى الريف في 12 كانون الاول 1935 واختارت منطقة جنين القريبة من حيفا مسرحاً لعملياتها وكانت تعمل على الاتصال بالفلاحين وتحريضهم ضد الاحتلال الاجنبي ودعوتهم للاشتراك في الثورة. إلا ان هنالك عوامل مهمة عدة جابهت العرب في عامي 1933 – 1934 دفعت القسام ومنظمته الى بدء بالعمل المسلح قبل ان يتم العاملون التأهب والاعداد . ومن هذه العوامل:

1- تدفق الهجرة الصهيونية الى فلسطين بصورة كبيرة.

2- اندفاع الصهاينة تؤيدهم بريطانيا في التسليح وتشكيل المنظمات الارهابية السرية.

3- استفحال خطر تسرب الاراضي لليهود وتفاقم اعمال السماسرة والخونة والجواسيس في خدمة الاعداء، تحت هذه العوامل اعلن القسام الضربات الخاطفة بالاعداء والاعمال الفردية والمحلية اول الامر كمرحلة تأهب لاعلان الثورة القسامية[38].

2-أعلان الثورة:

ابتدأت جماعة القسام تنفيذ عمليات فدائية موجهة ضد المستوطنات اليهودية عن طريق اعداد كمائن والهجوم على افراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود للخارج لوقف هجرتهم الى فلسطين ووقف التبرع للحركة الصهيونية. وبينما كان السياسيون الفلسطينيون يكشفون عن مواقفهم المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة، غادر القسام

يرافقه نحو 25 رجلاً من أنصاره في 12 تشرين الثاني قاصدين ضواحي جنين لدعوة الفلاحين في تلك المنطقة لحمل السلاح باحتلال حيفا ووقع صدام عرضي بينهم وبين قوات السلطة البريطانية نبههم الى وجود مجموعة مسلحة، وسارعت القوات البريطانية الى ضرب نطاق حول المنطقة وعزلها[39]، إذ احس الجواسيس المكلفون بمراقبتهم أنهم غائبون فازداد قلق السلطات المحتلة ونشطت في البحث عنهم بعد وقوع حادث الصدام بين مجموعة من جماعة القسام وعدد من القوات البريطانية ،إذ حشدت السلطات المحتلة قوة كافية واخذت تجوب المنطقة بحثاً عما سماه البريطانية " عصابة" واستمر البحث أياماً حتى أن جريدة "فلسطين" كتبت تقول يوم 20 تشرين 1935 ((قضاء جنين كأنه ساحة حرب))[40].

في ذلك الحين، رأى القائد القسام ان المستعمرين البريطانيين يراقبون تحركات القساميين مراقبة دقيقة،وساوره شعور قوي ان قوات السلطة البريطانية سيعتقل النخبة الصالحة من أخوانه ، مما يؤدي الى افشال جميع مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين[41]. وهكذا قرر الشيخ القسام الخروج لاعلان الثورة، فقد غادر حيفا مع مجموعة من المجاهدين لم تتفق المصادر على تحديدهم ولكن يمكن أجمالهم بما يلي:

1- يوسف عبد الله الزيباوي	من قرية الويب.
2- عكيفة احمد المصري	من سكان حيفا واصله من مصر.
3- محمد ابو القاسم خلف	من سكان ملحول.
4- عز السعدي	من سكان شفا عمرو
5- حسن الباير	من سكان برقين.
6- احمد الحاج عبد الرحمن حسن	من سكان عنبتا.
7- محمد يوسف	من سكان سولم.
8- اسعد مفلح الحسين	من سكان ام الفحم.
9- محمود سالم	من سكان زرعين.
10- صالح اسعد	من سكان صفورية.
11- داود خطاب	من سكان الكباري.

وغيرهم

قررت قيادة الثورة ان تبدأ المعركة الاولى بتحرير حيفا أكبر ميناء فلسطيني ومنطقة الصناعات البترولية، بقصد إحراز مكسب عسكري كبير يكون حافزاً للجماهير العربية للالتحاق بالثورة يومها ، توجه الشيخ القسام وأتباعه الى مغارة تقع في إحدى جبال " فقوعة " في قرية "نورس"، وهناك أطلق أحد أتباع القسام وهو محمود سالم، النار على احد الجنود البريطانيين، فنبه هذا الحادث على مكان وجود القساميين، وإثر ذلك طلب القسام من اتباعه مغادرة المكان لتجنب الاصطدام بالقوات البريطانية، وفعلاً غادرت الجماعة المغارة الى قرية "احراش يعبد" حيث طُوقت بالكامل[42]، وفي صباح يوم الاربعاء 20 تشرين الثاني 1935 كانت القوات البريطانية التي تجمعت من حيفا ونابلس والناصرة وبيسان وطولكرم قد وصلت الى المنطقة القريبة من يعبد، وهي قرية الشيخ زيد، وقامت بتفتيش المنطقة بحثاً عن المجاهدين ثم قامت جماعة القسام باطلاق النار باتجاه فصيل من الشرطة وكان ظن الشيخ ان هذا الفصيل منفرد ولكن تبين أنه فصيل متقدم كشاف للطريق امام قوة قوية من القوات البريطانية[43]، ومع بداية اطلاق النار استطاعت القوات البريطانية تحديد موقع اطلاق النار عليها ، وقد قدر عدد القوة المهاجمة لجماعة القسام بـــ 150 فرداً من السلطة البريطانية، فضلا عن قوة الاحتياط التي بقيت في جنين ونابلس وافراد من شرطة حرس السهل، واتخذت المعركة شكل قتال متنقل ، اذ ساعدت كثافة الاشجار على تنقل افراد الجماعة من موقع لآخر[44]، واستمرت المعركة ساعات عدة انتهت بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً، وكان الشيخ القسام من الفعّالين في القتال فقد حارب ببندقية ومسدس بالتناوب. ورغم المقاومة الباسلة كانت نتيجة المعركة استشهاد الشيخ القسام وعبد الله الزيباوي وسعيد محمد حنفي وجرح كل من نمر السعدي واسعد المفلح واسر الشيخ احمد جابر وعربي بدوي وتمكن البعض من الفرار منهم حسن البابر. وبمقابل هذه التضحيات نرى قلة خسارة البريطانيين بسبب اصرار الشيخ القسام على عدم اطلاق النار باتجاه الشرطة العرب وبتوجيه بنادقهم فقط نحو البريطانيين الذين اتخذوا مواقع خلفية[45].

وهكذا سقط الشهيد القسام الذي ارتبطت باسمه تلك الحركة الثورية التي يعدها جميع الباحثين في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية اول مواجهة مسلحة جريئة بين هذه الحركة وسلطة الانتداب البريطاني. ويومها عم الحزن أنحاء البلاد لاستشهاد الشيخ القسام[46].

- **اثر الثورة القسامية على الجماهير الفلسطينية:**

عم الحزن والغضب والالم أنحاء البلاد لاستشهاد القسام ورفاقه وزاد في نقمة الجماهير وغضبهم حين أعلنت الحكومة البريطانية أنها تمكنت من إنهاء وجود عصابة من الاشقياء وقتل زعيمها الشيخ القسام، وارسلت برقيات الاحتجاج، وقامت مظاهرات فورية في البلاد، مما أضطرت السلطات البريطانية الى إعادة بلاغ رسمي، قالت فيه أن قواتها المسلحة أشتبكت مع جماعة مسلحة يقودها الشيخ عز الدين القسام الذي قتل وسلمت جثث القتلى لذويهم وقبضت على الاخرين منهم[47]، ولقد كان لثورة الشهيد القسام التي ابتدات سرية ثم أعلنت عن نفسها في ذكرى وعد بلفور في 2 تشرين الثاني 1935 صدى بعيد في نفوس البريطانيين فقد هالهم ان يخوض شعب فلسطين الثورة المسلحة ويحاول مقاومة الاجراءات التي اتخذتها بريطانيا ضد الكفاح المسلح ، وبرغم سياسة الافقار والتجويع والحصار التي سنتها في فلسطين منذ احتلالها. ولعل اغرب ما في هذه الثورات ان صاحبها اعلنها ليلة 12 تشرين الثاني 1935 واستشهد بعد اسبوع ، الا انها مع ذلك كانت النواة لكل ثورة مسلحة منظمة وقعت في فلسطين فيما بعد ، بمعنى آخر ان استشهاد صاحبها كان النفير لثورة العرب الكبرى عام 1936[48] وكان للحادث اثر بليغ في نفوس العرب واثارة عواطفهم وهاجت اعصابهم بحدتها وما انطوى فيها من خطورة واقدام فقابلوه بمظاهر جياشة من الاكبار حتى خشيت السلطات الفلسطينية هذه المظاهر وسلمت جثث الشهداء الى ذويهم وغضت الطرف عن الاحتفال بدفنهم[49].

الخاتمة:

كان لاستشهاد الشيخ عز الدين القسام البطولي اثر عميق في فلسطين كلها وسرعان ما اصبح رمزاً للتضحية والفداء وشيع جثمانه في حيفا بتظاهرة وطنية كبرى نادت بسقوط البريطانيين واية دعوة للوطن القومي لليهود.

ومهما يكن من امر فأن الزعماء الفلسطينيين وجدوا انفسهم بعد ذلك مكرهين على انتهاج سياسة اقل تقرباً من البريطانيين...ففي مقابلة اجراها مع واكهوب جماعة يمثلون الاحزاب الفلسطينية الخمسة بعد ستة ايام فقط من استشهاد القسام، قدم له هؤلاء الزعماء مذكرة جاء فيها "انهم اذا لم يتلقوا عن مذكرتهم جواباً فيمكن اعتباره بصورة عامة مرضياً وإلا فأنهم سيفقدون كل ما يملكون من نفوذ على أتباعهم".

وتبين لنا أن الشيخ القسام لم ينجح في تمويل حلقاته الضيقة الى حركة واسعة فقد نشط في حيفا ولم ينتقل الى الريف حيث كان من الطبيعي ان يجد تجاوباً كبيراً وكذلك أنه خرج الى الجبال في فترة الجزر الثوري أو قبل معاودة التقدم.

وهنالك من الحقائق ما يثبت أن الشيخ لم يختر بداية المعركة بنفسه بل انجر اليها نتيجة لملاحقات قوات السلطات البريطانية التي تتبعت آثاره.

الهوامش

(1) سميع حمودة، الوعي والثورة، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان د. ت، ص21.

(2)عادل حسن غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية 1971- 1936، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص294.

(3) ولد في مصر عام 1841 من ابوين فقيرين كان ابوه يشتغل بالفلاحة فاشترك اولاده في عمله الا محمد اذ توسم فيه الذكاء فاراد ان يجعله من الفقهاء ، درس في جامع الازهر واظهر تفوقا علميا واضحا ، الامر الذي اهله لان يقوم بمهمة التدريس في المدارس الاميرية ، اشترك اشتراكا فعالا في الثورة العرابية عام 1882 ، توفى عام 1905. ذكرى احمد جمعة الدوري ، محمد عبدة دراسة فكرية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، اتحاد المؤرخين العرب، ، بغداد ، 2003 ؛ وليد الخالدي واخرون، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، الجزء الاول، د. م، د. ت، ص466.

(4) سميع حمودة ، المصدر السابق، ص 22.

(5) احمد عرابي : ولد في 31/اذار 1841في مصر . من عائلة بدوية الاصل ، ابوه شيخ البلد اكمل دراسته في جامعة الازهر ثم التحق بالجيش حتى صار قائمقام له مواقف وطنية ضد سلطات الاحتلال البريطاني . اعتقل مرات عدة وحكم عليه بالاعدام في 13 ايلول 1882 وخفض عليه الحكم للنفي الى جزيرة سيلان عاد الى مصر عام 1901 حتى توفي في 21 ايلول 1911 له مذكرات بعنوان" كشف الستار عن سر الاسرار"." الهلال " (مجلة)، ج70 ، المجلد 56 ، مصر ، 1948 ، ص 100..

(6) سميع حمودة، المصدر السابق، ص23.

(7) عبد الهادي هاشم واخرون، الموسوعة الفلسطينية ، (مجلة) ، مجلد الثالث ، ط1 ، دمشق ، 1984، ص230.

(8) سميع حموده، دراسة في حياة وجهاد عز الدين القسامن 1882-1935 ، الاردن ،ط2، 1986 ، ص 25.

(9) علي حسين خلف، تجربة عز الدين القسام السورية، " شؤون فلسطينية"(مجلة)، بيروت، العدد 124، اذار 1982، ص18.

(10) مقتبس في: امين سعيد، جريدة الجامعة الاسلامية ، فلسطين ، 1939 ، العدد 997.

(11) سميع حمودة، دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، ص29.

(12) سميع حموده، دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام ، ص37.

(13) د. سلطان اليوزبكي، دراسات في الوطن العربي، منشورات جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الموصل، 1974، ص.

(14) عبد الوهاب الكيالي، النضال الفلسطيني دروس وعبر ، بيروت ، ط3 ، تموز ، 1973، ص229؛عز الدين فودة،الاحتلال الاسرائيلي والمقاومة الفلسطينية،منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث، بيروت، اب ، 1969، ص121

(15) عبد الهادي هاشم واخرون، المصدر السابق، ص180.

(16) المصدر نفسه ، ص617.

(17) حسن صبري الخولي، سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين، القاهرة، 1973، ص583.

(18) ولد في لبنان 1869 ، كاتب واديب ومفكر سمي بامير الابيات بسبب كونه اديبا وشاعراً فضلا عن كونه سياسياً كان يجيد اللغات (العربية والتركية والفرنسية والالمانية) ، تربطه علاقة مع جمال الدين الافغاني واحمد شوقي ومن دعاة الوحدة وكان من اوائل الرافضين الى سياسة المستعمرين في فلسطين توفي سنة 1946 . " الهلال " (مجلة) ج70 ، المجلد 56 ، مصر ، 1948 ، ص 48.

(19) ولد عام 1873 في الهند ، وهو زعيم مسلم هندي قاد حركة احياء الدولة الاسلامية تلقى تعليمه في جامعة عليكره الاسلامية ، له مواقف مشرفة لدعم الثوار الفلسطينيين وعمق اتصلاته مع الشيخ القسام ، المصدر نفسه ، ص 53.

(20) زعيم وطني فلسطيني ولد في القدس عام 1896 تخرج في الكلية الحربية باستنبول وانضم الى الجيش الشريفي ابان الحرب العالمية الاولى للنضال من اجل الاستقلال العربي . شارك في ثورة القدس عام 1920 ضد البريطانيين ، ترأس المؤتمر الاسلامي ، ادى دورا مهما في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام 1941 ،اعتقل اثناء الحرب العالمية الثانية . عبد الوهاب الكيالي ، الموسوعة السياسية ، ج1 ، ط1 ، بيروت ، 1979 ،ص 332.

(21) نجيب الاحمد، فلسطين تاريخياً ونضالاً، عمان ، ط1 ، 1985 ،ص204.

(22) ناجي شوكت، سيرة وذكريات ثمانين عاماً 1896- 1974، مطبعة سلمان الاعظمي، بغداد، 1974، ص35.

(23) موسى حبيب، الوطن اليهودي وعلاقته بالارض المقدسة ، دار دجلة للطباعة، بغداد، 1947، ص47.

(24) عبد الرحمن محمد، القضية الفلسطينية، الجزء الثالث، دار الطباعة الحديثة، البصرة، 1969، ص110.

(25) رجاء النقاش، شاعر الارض المحتلة ،دار الهلال للطباعة ، ط2 ، يسروت ، 1968 ، ص58.

(26) محمود جابر، حقائق عن الثورة الفلسطينية في الماضي والحاضر والمستقبل، مطبعة الغري الحديثة، النجف، 1970، ص48.

(27) وزارة الدفاع الوطني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، الاركان العامة، الشعبة الخامسة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، سلسلة دراسات رقم 34، الطبعة الاولى، 1973، ص231.

(28) اسماعيل عز الدين وآخرون، ثورة عز الدين القسام ، دار العودة، بيروت، د. ت، ص13.

(29) عادل حسن غنيم، المصدر السابق، ص293.

(30) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، المكتبة العصرية ،بيروت ،1979، ص119.

(31) عبد الوهاب الكيالي، المصدر السابق، ص44.

(32) سعد زغلول فؤاد، الفدائيون الفلسطينيون في ميدان القتال، د. و ، 1968، ص17.

(33) عبد الهادي هاشم ، المصدر السابق، ص229.

(34) " الهلال " ،(مجلة) ج70 ، المجلد 56 ، مصر ، 1948 ، ص 48.

(35) عرفات مجازي، فلسطين ارض الثورات، سلسلة التوعية الفلسطينية ، الكتاب الرابع الطبعة الاولى، ص52.

(36) عباس عطية جبار ، العراق والقضية الفلسطينية (1932 –1941) ، بغداد ، 1983 ، ص 69.

(37) عبد الهادي هاشم وآخرون، المصدر السابق، ص 618 .

(38) المصدر نفسه، ص619.

(39) عبد الوهاب الكيالي، المصدر السابق، ص294.

(40) مقتبس في: ناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين، مركز الابحاث ، بيروت، سلسلة كتب(6) بيروت، 1967، ص104.

(41) سميع حمودة، المصدر السابق، ص68.

(42) صالح مسعود ابو بصير ، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، دار الفتح للطباعة والنشر ، بيروت ، 1984، ص177.

(43) خير الله شوقي، بسمة النور وثورة القسام،منشورات عويدات ،ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1975، ص297.

(44) نجيب الاحمد، المصدر السابق، ص183.

(45) سميع حمودة، المصدر السابق، ص80.

(46) هاشم عبد الهادي واخرون ، المصدر السابق ، ص 70.

(47) نجيب الاحمد، المصدر السابق، ص220.

(48) محمد عزة دروزة، المصدر السابق، ص95.

(49) عرفات حجازي، فلسطين ارض الثورات ، الكتاب الرابع ، ط1 ، ص37.

Abstract

Izaalden Al- Qassam Revolution was one of the markest Palestinian Revolution in the twentieth century. From the conservative Islamic environment and his study in Al- Azhar Academy, he could put himself forward as a field leader able to fulfill the ambition of Palestinian people .

The 1936 Revolution was the first try in his struggle. Through the study of the subject it cleared that Sahikh Al-Qassam didn't succeed to make his narrow groups a wide movement. His activities was in Haifa and he didn't move to the country where he was spending. Period of time in running the fighting and recruiting arts . Thus Al- Qassam Achieved to pave is still found in revolution people selves .